

## الحن الضائع

كان من منهاج حياتنا اليومي أن نلتقى . وكانت الندوة مقهى أنيقاً بشارع أكسفورد في لندن . وكان للقائنا ميعاد موقوت لم نتخلف عنه طوال سنوات التحصيل الثلاث الطبية التي قضيناها في تلك المدينة الخالدة . وكان هو يمضي أكثر ساعات نهاره وطرفاً من الليل في مختبر تجاربه الكيماوية ، وكنت أنا أمضي مثل ذلك من أيام الشباب الجاد في مكاتب الجامعة الحاشدة . وكان حرصنا على اللقاء في الندوة المختارة عظيماً ودائماً على رغم كل ما قد يستجد من الظروف . وكنا نتفق كثيراً في مجالس السمر العامرة تلك ، وكنا نختلف كثيراً أيضاً ، وقد نمضى عنها غضاباً وقد نمضى فرحين . ولكننا كنا نعود ، في الركن المعين والموعود الموقوت . ولم أقطع أنا عن السعى إلى تلك الندوة منذ تعارفنا ، ولم ينقطع عن مثل ذلك صاحبي غير مرة واحدة ! وما كانت هذه المرة لتذكر لو لم تكن على النحو الذي تمت عليه . ومع بعد العهد بما قد تم وبالجو العامر بالسعادة الذي كان يغمرنا يومئذ ، فما زالت ذكرها عالققة بذهني كأنها وقعت بالأمس القريب ! لقد انفرط بعدها عقد صفائنا ، وما أحسب أنه عائد أبداً . . .

. . . في مساء اليوم السابق لانقطاعه كنا جلوساً على العادة في الندى المختار . وكان الحديث يشتمل على أفانين شتى من الجد والفكاهة ، وقطع من الموسيقى الهزجة تنتشر في جو الندى ، ومن حولنا صخب الناس ، وضجيج السيارات وهمس رواد المكان . ورجاء أدارت العاملة الموكلة بالاسطوانات اسطوانة لم يلبث صاحبي عند سماعها أن وقف حديثه بغتة لأجلها ، وأنصت إنصاتاً نقله مما حوله إلى جو خاص . وأمضى في سهومه نحواً من دقيقة تجهمت في خلالها أسارير وجهه الأسمر ، وانعقد حاجباه واتسعت عيناه السوداوان ، وارتسمت على جبينه آثار الرجوع إلى حلم قديم . ثم أدار وجهه نحوى وقال : « اصغ . . هذه

قطعة من قطع ريمسكى كورساكوف الخالدة . هذه « شهر زاد » ؛ عروس الشرق تتهادى فى موكب زفاف غربى .

وأنصت — ولم يكن لى علم كعلمه بالموسيقى — فأعجبنى ما سمعت ، واستخفتنى ألحانها ، وخيل إلى أنى فى جو علوى ، لا هو شرقى خالص ولا غربى خالص ، بل مزاج إنسانى رفيع . وأنصت أيضاً فشعرت أنى لا أسمع هذه الألحان سمعاً فقط ، ولكن حواسى الخمس جميعاً قد تمازجت فهى حس واحد واستحسان أتم لهذه الأنغام .

ونبنى صاحبى ، قال : « اسمع هذا التريديد » وجعل يساير الاسطوانة بصفير أوقعه بحساب الموسيقى الرائعة ، هذا تريديد ليالى الألف التى قضتها شهر زاد المرأة الحكيمة مع الملك الفذ شهر يار . ومضى وقت — لست أدرى بامداه — ثم تخافتت الألحان وتخافتت حتى غمرتها ضجة المكان . وظل صاحبى ساهماً ، يعاود صفيره بين آونة وأخرى . ولم أشأ أن أقاطعه ؛ فقد كانت تم هياته على استحسان ما هو فيه ، وكنت أنا أيضاً قد استحسننت الحن فأعجبنى تريديده فسكت وأصغيت . ثم أفاق صاحبى من حلمه ، وقال : « هذا الحن كان ضائعاً — أعنى من ذا كرتى — وقد وجدته وسأجدها معه ! هذا الحن الذى هزك هنا وسط لندن قد كان هزنى من قبل . لقد سمعته قبل ست سنين على حفافى الصحراء فى مصر الجديدة . وظل فعله يستجد فى كل ما سمعته وأبنا سمعته . وقد حفظت التريديد كما حفظت أكثر أنغام القطعة . وكان من رأى إذا جلست وحدى أن أعيدها على نفسى . وذات مرة — وقبل أن أفاك بعامين — كان القطار يقطنى من باريس إلى هذه الأرض ، ولم أبال الناس الذين معى أول الأمر ، فطاف بذهنى أن أردد لحنى المختار ، ففعلت ، وظللت أعيد تريديده وأنا أستطيب ذلك ، حتى ذكرت أن ذلك قد لا يطيب لمن حولى ، فكففت خجلاً . وكنا ثمانية ركاب فى المقصورة : شابين مصريين وزوجتيهما وأنا وثلاث سيدات بينهن إنجليزية واحدة . وقد بادرتنى الإنجليزية — وكانت أصباهن وأحلاهن — فقالت : « عفواً ، أليس هذا التريديد من قطعة شهر زاد ؟ » قلت : « بلى ! بعينه » . فردت تقول : « رائع ! » قلت : « صدقت » . واستمر الحديث بيننا ، وجر الحديث إلى معرفة ، والمعرفة إلى دعوة لبيتها ، ثم أفضى ذلك إلى صداقة لم تلبث أن انقلبت حباً آخر الأمر . وكانت شمس مصر الحبيبة لم يزل أثرها فى نفسى وقلبى ، ودفعها

الذي يبعث الحياة كنت لا أزال أنعم به ، فكان حي من أثر ذلك عنيًا . . . »  
قال صاحبي : « وبقاة ألفتني ذات يوم أفقد اللحن الأثير ، وأفقد ديني في ذلك اليوم نفسه ! »

. . . قال : « كنا قد اتفقتنا على أن نلتقى على رصيف إحدى محطات القطار الكهربائي تحت الأرض ، وتوافقنا في الموعد المضروب ومضيت بها إلى حديقة سان جيمس ، وكان يوماً تضئ بمثله الطبيعة على الناس في إنجلترا : زائته الشمس الساطعة ، وانقشعت عن وجه السماء الغيوم غير قطع صغيرة زادت زرقها روعه . وكانت ساعة المغرب تاجاً لذلك النهار المشمس ، فقد تجمعت دكنة الغيوم وزرقة السماء وذهب الأصيل لاخراج مشهد من المشاهد النادرة في تلك الآفاق . وكنا — دين وأنا — نستجلى ذلك المشهد في مجلسنا في الحديقة حتى غابت الشمس واضمحلت حمرة الشفق ، ثم لم تلبث الظلمة أن خيمت بعد أن غلبت بقايا النور فطمستها ، فأسينا في عتمة تتبين العين من خلالها الأشباح لا تفاصيل المراتب . واستدارت دين نحوى وقالت : « أعجيبك المشهد الجليل ؟ »

« قلت : نعم ! قالت : نعم وحسب ! »

« والواقع أن «نعم» وحدها لم تكن تكفي لملاعراب عن شعور المرء وإعجابه بما قد رأى في ذلك المساء ، غير أن عاملين اجتماعاً بغم ثقيل على صدرى في تلك الساعة فجاء الجواب مختصراً على هذا النحو ؛ فغلبة الظلام على النور تكرب نفسي دائماً ؛ وقد سعيت إلى التفريح عنها باللحن الأثير فضاعت كل محاولة عبثاً لاستعادته يومئذ ، لم أستطع قط أن أذكره ، وفقدته ، وفقدتها معه أيضاً كما قلت . فقد اشتد الضيق بصدري حتى لم أكد أطيعها ، فكان كل جواب صدر مني لها خشناً ، وكل عبارة قاسية ، وكل لفظة وخزاً أليماً لنفسها الرقيقة . وقد أدهشها ذلك مني ، وتلطفت بي ، وحاولت أن تترضاني وتستأنسني ، فلم يجد ذلك وأسمت آثار الظلماء تجم على ، وفقدان اللحن يكرهني . وقد حاولت دين أن تذهب ما بي بمحاولات شتى من عندها ، فاقترحت أن لاسير في ممشى الحديقة الناضرة ، فقممت وإياها ، وكان الظلام قد أحكم إرخاء سدوله وشغل الحديقة كلها ، وأطبقت معه الغيوم على السماء إطباقاً ، فانتشرت كثيفة على صفحتها ، وحجبت كل نجم كان قد بدأ متلاً فيها . وسرنا في الممشى التي كانت تبدو كالأخاديد

السود ، وأوغلنا ونحن ساكتان وكل همي أن أستعيد لحنى الضائع لأسترد بذلك طمأنينة نفسى ، ولكن كل محاولة كانت باطلة . وبدأ لى أن كل جهد أبذله فيضيع يزيد كرب نفسى ويبعدنى عن اللحن بعداً ينضاف إلى به هم جديد . وشعرت أنى فى ذلك الجبو الذى لفه السكون والظلام حبيس ، وأن رثى لا تجدان من الهوا الطلق كفاية تعينهما على التنفس ، فأنا أحتق . فالتفتت إلى دين وقلت لها : « دين ! إنى تعب . جد تعب ؛ فهل تأذنى لى فى الاضطجاع على العشب خمس دقائق فقط ؟ »

« قالت وقد أخذتها الدهشة : ولماذا ؟ ولكنه مبلول وأخشى عليك البرد . فلم أجبها وأفلت يدي المشبوكة فى يدها وجلست متخاذلاً ، ثم ما لبثت أن اضطجعت .

« كان المشهد رائعاً : ظلمات شاملة فى السماء ، تتلقاها أشباح الشجر القائم عند ملتقى الأفق فى الجانب الشرقى ، ويقابلها من الغرب خط من الأنوار المنبعثة من الشارع البعيد . وكنت — وأنا مضطجع — أستطيع أن أتبين قوام دين الجميل وبعض قسما وجهها ، وبخاصة بريق عينيها وطرف أنفها ، وكانت تطل على من عليها ، فكأنها مخلوقة هابطة من الظلمات العلا . . أعنى السموات . وظلت مدة وأنا سادر أنامل وأحلم ، وقد اختلطت الحقائق فى عيني بالرؤى ؛ فقد كان للظلماء التى صبغت كل شىء بلون حجابها القائم أثر فى ذلك الخلط .

« فى تلك الضجعة على أعشاب حديقة سان جيمس فقط تبينت أن البشر خلق علوى وأن موضعه السموات . لقد رأيت الأرض نجماً ساجماً فى فضاء رحب كما يصورها الفلكيون حقا . إذأ فليس بين أرضنا الأم وبين نجوم السموات من فرق فى الأصل . . كل شىء بدا لعينى يمت بصلة للأشياء الأخرى التى فى هذا الكون : الأرض والانسان والنبات والنجوم كلها خلق واحد ومادة واحدة . ونهينى من حلمى صوت دين الرقيق يقول : « مضت عشرون دقيقة . وأخشى أن يصيبك البرد فتم . » وسكنت ، لجعلت أصداء كلماتها تتردد فى أذنى وفى نفسى . وقمت فخرجنا وتعيشينا وعاد إلى نفسى بعض هدوئها وإن كنت ما أزال شاعراً بأن فى قرارها شيئاً نفسياً مفقوداً . »

قال : « ومضت على تلك الليلة قرابة ثلاث سنين . لم أذكر اللحن الضائع ولم أر فى خلالها دين . ولم أسع إلى سماع الأسطوانة التى تحفظه — وذلك

ميسور — لأن سحر المصادفة يضع منى ونفوتى متعته . كانت المصادفة هي التي وافقت بينى وبين دين وهذا اللحن ! وقد مضى اللحن وضاع وسط ملايين من ألحان الكون الرحب التامة . ومضت دين أيضاً وضاعت وسط هذه الملايين من سكان لندن . وما بى من حيلة إلى خلق المصادفة ، وإن كنت قادراً على إيجاد اللحن . ولكنى أرى المصادفة قد جاءت الآن : عاد اللحن ، وإنى لعلى يقين بأنها هي أيضاً ستعود . »

فى الليلة الثالثة غاب صاحبي على غير عادته عن الندى ، وامتد أمد غيابه أسبوعاً بأكمله . وقد قلق أصحابى لغيابه ، وافقدوه وافقدته أنا أيضاً بأشد ما افقدوه ، ولكن كان فى نفسى من حس الطمأنينة بالتقاء الحبيين وعودة الصفاء بينهما ما لم يكن مثله فى قلوب الآخرين . . . وضح ما قد توهمت وأحسست ، فقد تبينت أنه نعم بصفاء لقيها طوال ذلك الأسبوع ؛ وعاد ليطمئننا ثم يستأذنا فى الغيبة من جديد . . . وكان ذلك إيذاناً بانقراط العقد ، وقد كان !

فخرى شراب